

أما لماذا أتى إلى المغرب فذلك ما تتعذر معرفته؛ فالنص لا يقدم أي تعليل لهجرة صاحبنا من الشرق إلى الغرب. كل ما في الأمر أنه جاء من البلاد التي تشرق فيها الشمس إلى البلاد التي تغرب فيها. فكأنه جاء يتتبع مسار الشمس، وكأن القصد من تنقله البحث عن المكان الذي يغرب فيه الكوكب المنير.⁽¹⁵⁾ ولما حل بالمغرب «نزل» بأحد الرباطات «فمات به»، أي أنه اختفى من وجه الأرض كما تفعل الشمس عندما تنزل من السماء وتغيب عن الأنظار.

بعد طواف طويل توقف أبو سهل «برباط» تاسمطت من عمل مراكش» ولم يغادره، وأخيراً رابط في قبر واستقر فيه نهائياً. ورغم غيابه فإن قبره شاهد عليه، ينوب عنه ويقوم مقامه. رغم أنه هبط إلى أعماق الأرض فإن قبره بارز للعيان، يعلو سطح الأرض كشمس تسطع من جديد، ويقصده الناس للتبرك به، لأن صاحبه أتى يوماً يحمل العلم على عاتقه، أتى يحمل قبساً من النور الذي يغمر منزل الوحي.

لماذا قطع مسافة طويلة على قدميه ولم يركب دابة من الدواب؟ الإدقاعه وخلو يده؟ أرغبة منه في التشديد على نفسه وإذلال جسده؟ أشبهاً بمن يحج على القدم؟ مهما كان السبب فإن إشارة النص إلى هذه النقطة دليل على أهميتها وعلى أنها تستحق أن تسجل وتعد من فضائل أبي سهل. بل إنها دليل على أنه انفرد بهذا السلوك وتميز به عن الركاب الذين صحبوه أثناء السفر. ذلك أنه يمكن الجزم، رغم صمت النص، أن أبا سهل لم يكن وحيداً عندما كلمه الجمل. وإلا فمن شاهد الحدث وأخبر به؟

قد يقال: أبو سهل قام بنفسه برواية الحدث العجيب الذي وقع له في طريقه إلى المغرب! لكن هذا القول مرفوض من عدة وجوه. فلا يتصور أن يقوم أبو سهل بالحكاية لأنه إن فعل سيخالف ما درج عليه القوم من التكتّم ومن إخفاء

(15) الثنائية مشرق/مغرب لها أهميتها في مقدمة التشوف، حيث يورد ابن الرّيات العديد من الأحاديث النبوية التي تشيد بفضل أهل المغرب (ص. 31 - 33).